صوت الحكمة للخروج من الفتنة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه؛ أما بعد:

● فَإِنَّ الأَمْنَ والاستقرارَ نعمةٌ عظيمةٌ، ومَظَلَّةٌ عَمِيمَةٌ؛ يستظل بِها الجميعُ مِن الفِتَنِ والشرورِ؛ فَبِها تُقَامُ شعائرُ الإسلامِ، وبِها يَأمَنُ الناسُ على دِمائِهم وأموالِهِم وأعراضِهِم، وتَأمَنُ السُّبُلُ، وتُرَدُّ المَظَالِمُ لِأَهلِها. فَبِنِعمةِ الأَمْنِ استقامةُ أَمْرِ الدنيا والآخرةِ، وصلاحُ المعاشِ والمعادِ، والحالِ والمـآل. لذلك قَدَّمَها نبيُّ اللهِ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الرزقِ عندما دَعا قائلاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وكذلك فعل نبيُّنا ﷺ عندما قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» «صحيح الجامع» للألباني.

● فَبوجُودِ نعمةِ الأمنِ تُحفَظُ الضرورياتُ الخَمْسُ -الدينُ والنفسُ والعقلُ والعِرْضُ والمـالُ-. ولِهذا أَوْجَبَ اللهُ على الناسِ تنصيبَ الأئمةِ أو الحُكَّامِ ليقوموا بترسيخِ أركانِ الأمنِ في البلاد.

● وفي هذا يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وِلَايةُ أَمْرِ الناسِ مِن أعظمِ واجباتِ الدين، بـل لا قـيامَ للـدينِ ولا للدنـيا إلا بِهـا، ولِهـذا رُوِي أَنَّ: "الـسُّلْطَانَ ظِـلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ"، ويُقَالُ: "سِتُّونَ سَنَةً! مِنْ إِمَامٍ جَائِرٍ!؛ أَصْلَحُ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِلَا سُلْطَانٍ!!"، (والتجربة تبين ذلك)!!، ولِهذا كان (السَّلَفُ) يقولون: "لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ؛ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ"»اهـ.

● ونظرًا لأَنَّ الحاكمَ لا يستطيعُ تحقيقَ الأمنِ إلا بانسياقِ الناسِ له وطاعتِه فيما يَلِي مِن أمورِهِم، ولأَنَّ عدمَ طاعةِ الحاكمِ والخروجَ عليه يؤدي (حَـتْمًا) إلى الفتنِ والشرورِ وزعزعةِ أمنِ البلادِ والعبادِ؛ فقد فرَضَ اللهُ على الناسِ السمعَ والطاعةَ له في العسرِ واليسرِ والْمَنْشَطِ والْمَكْرَهِ وفي سائرِ الأحوالِ ما لم يأمر بمعصيةٍ!؛ إذ لا سَمْعَ ولا طاعةَ لِأَحَدٍ -كائِنًا مَنْ كان- في معصيةِ اللهِ.

● بل إنه أَمَرَ بالصبرِ على جَوْرِ الحُكَّامِ وظُلْمِهم، واستئثارِهم بالأموالِ والثرواتِ لأنفسِهم دون الناس. كما أنه أَمَرَ بعدمِ الخروجِ عليهم -باللسان أو السِّنَان- وإِنْ رَأَوْا منهم المنكراتِ العظيمة!؛ طالما أنهم مسلمون ويقيمون في الناس شعائرَ الإسلامِ الظاهرةَ كالصلاةِ وغيرها.

١- قال اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

● **قـال النووي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماءُ: المرادُ بـ"أُوْلِي الأَمْرِ": مَنْ أَوْجَبَ اللهُ طاعته مِنَ الولاةِ والأمراءِ. هذا قَوْلُ (جماهيرِ السَّلَفِ) والخلفِ مِنَ المفسرينَ والفقهاءِ وغيرِهِم»اهـ.

٢- وعن عبدِ اللهِ بن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ» **متفق عليه**.

وفي رواية: «عَلَيْكَ بِالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَعُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، (وَأَثَرَةٍ) عَلَيْكَ».

● **قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «طاعةُ الأميرِ واجبةٌ على كل حال؛ وإن استأثروا بالأموال دون الناس»اهـ.

٣- وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «"إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً (يعني استئثارًا بالأموال) وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ!؛ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: "أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمُ الَّذِي جَعَلَهُ لَهُمْ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ، (وَاصْبِرُوا) حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"» **متفق عليه**.

وفي رواية أنه ﷺ سُئِل: «أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَمْنَعُونَا حَقَّنَا وَيَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا؛ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ"».

٤- وعن حذيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ!؛ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ!» قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟!؛ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ!!، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ» **أخرجه مسلم في «صحيحه»**.

● **قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «فيه (حُجَّةٌ) في وجوبِ لُزوم جماعةِ المسلمينَ، وتَرْكِ الخروجِ على أئمةِ الجورِ. لأنه وصَفَهم بالجورِ والباطلِ والخلافِ لِسُنَّتِهِ وأنَّهم على ضلالٍ، وأمر مع ذلك! بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ولم يأمر بتفريق كلمتهم»اهـ. **باختصار وتصرف يسير**.

● **قلت**: وفي الحديث أبشعُ أوصافٍ يُمكنُ أنْ يُوصَفَ بها حاكمٌ ورجالُه!، وبرغم ذلك فقد سَمَّاهم النبيُّ ﷺ (أئمة)، وأَوْجَبَ طاعتَهم، وحَرَّمَ الخروجَ عليهم، وأمر بلزوم جماعتِهم.

٥- وعن عَوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «"شِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَبْغَضُونَهُمْ وَيَبْغَضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!؛ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ -عِنْدَ ذَلِكَ- بِالسَّيْفِ؟!، فَقَالَ: "لَا!؛ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ؛ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ» **أخرجه مسلم في «صحيحه»**.

٦- وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ؛ (فَلْيَصْبِرْ)؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَالَفَ السُّلْطَانَ -قِيدَ شِبْرٍ!- فَيَمُوتَ؛ إِلا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً!» **متفق عليه**.

٧- وعن عِياضِ بنِ غَنْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ؛ فَلَا يُبْدِهِ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ» صححه الألباني في «ظلال الجنة». ● قال ابن عبد البر: «إن لم يتمكن من نُصْحِ السُّلْطَانِ، فالصَّبْرُ والدُّعاءُ» اهـ.

٨- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَانَا كُبَرَاؤُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: "لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ، وَلَا تَغِشُّوهُمْ، وَلَا تَبْغَضُوهُمْ، وَلَا تَعْصُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ (وَاصْبِرُوا)؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ"» جَوَّدَهُ الألباني في «ظلال الجنة في تخريج "السُّنة"». ● قلت: نَهي أكابرُ أصحابِ النبيِّ ﷺ عن تحريمِ سَبِّ الحُكَّام؛ لأنه نَواةُ فتنةِ الخروجِ عليهم، ومفارقةِ جماعةِ المسلمين.

٩- وقد أَجْمَعَ العلماءُ على كُلِّ ما سبق؛ ● فقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الخروجُ عليهم وقِتالُهم؛ (فَحَرَامٌ بإجماعِ المسلمين)، وإنْ كانوا فَسَقَةً ظالمين. وقال جماهيرُ أهلِ السُّنةِ: لا ينعزلُ بالفِسْقِ والظلم، وتعطيلِ الحقوقِ، ولا يُخْلَعُ ولا يجوزُ الخروجُ عليه بذلك، بل يَجِبُ وَعْظُه» اهـ.

شبهة!: يقولون!: إنَّ الأحاديثَ السابقةَ حقٌّ، لكنها تَتَنَزَّلُ على الإمامِ الذي بايعه الناسُ وارتضوه، وليس فيمن سَلَبَ الشَّعْبَ حقَّ الاختيارِ؛ فغلبهم بسُلْطَتِه، واستَبَدَّ بالحُكْمِ!.

والرد عليها: أنَّ الشرعَ قد اعتبَرَ وِلَايةَ الْمُتَغَلِّبِ (وِلَايةً صحيحةً) -شأنُه في ذلك شأنُ الإمامِ المُبايَعِ بلا فرق!-؛ وذلك درءً لفتنةِ إراقةِ الدماءِ، وصَوْنًا للأعراضِ والأموالِ، وجَمْعًا لوحدة المسلمين، وحفظًا لأمنِ البلادِ مِن أعدائِهم. وقد دَلَّ على ذلك النصُّ والإجماعُ:

١- فأما النص: فعن حُذيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ .. ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبوَّةِ ... ثُمَّ تَكُونُ (مُلْكًا جَبْرِيَّةً)».

● قلت: وفي قولِه ﷺ «مُلْكًا جَبْرِيَّةً» إشارةٌ إلى اعتبارِ وِلايةِ المتغلبِ؛ حيثُ ذَكَرَها النبيُّ ﷺ فيما هو كائن ولم يبين بطلانها؛ مما يدل على اعتبارها.

٢- وأما الإجماع: فقد جرى على ذلك الصحابةُ والتابعونَ وسائرُ الأئمةِ؛ إذ أقروا بصحةِ الولاياتِ الجبريةِ على مَرِّ العُصورِ السابقةِ -مِن لَدُنْ ولاية اليزيد بن معاوية مرورًا بسائر خُلَفاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وخُلَفاءِ بَنِي العَبَّاسِ وجميع مَنْ جاء بَعدهُم مِن الحكَّامِ- إلى زماننا هذا.

● قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «(أجمع الفقهاء) على وجوبِ طاعةِ السلطانِ المتغلبِ، والجهادِ معه، وأن طاعتَه خيرٌ مِنَ الخروجِ عليه؛ لِمَا في ذلك مِن حَقْنِ الدماءِ، وتسكينِ الدَّهْمَاءِ!» اهـ.

● وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومذهبُ (أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ)، أنَّ الإمامةَ يَصِحُّ أنْ تَنعقِدَ لِمَنْ غَلَبَ الناسَ، وقَعَدَ بالقوةِ في مَوْضِعِ الْحُكْمِ» اهـ.

الواجب عمله للخروج من هذه الفتنة !

١- **تصحيح المعتقد:** فيما يتعلقُ بعلاقةِ الحاكمِ والمحكومِ، مع نَشْرِهِ في الناسِ وتعليمِهِمْ إيَّاهُ.

٢- **لزوم جماعة المسلمين وإمامهم:** بعدمِ الخروجِ عليه ولَوْ بالكلمةِ فَضْلاً عنِ التظاهرِ! والقتالِ!!.

٣- **لزوم البيوت في أماكن الفتنة، وكفّ الأيدي والألسن عنها:** فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ (أي: تعرَّض) لَهَا؛ تَسْتَشْرِفْهُ! (أي: تُهلِكْهُ)، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ (يعني: الْزَمُوا بُيُوتَكُمْ) حَتَّى تَنْجَلِيَ» متفق عليه.

٤- **التوبة إلى الله من المعاصي، والتضرع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالصلاة وبالدعاء؛ لكشف هذه الغمة:** فلا شَكَّ أنَّ البلاءَ ما حَلَّ بنا إلا لأننا ابتعدنا كثيرًا عن دينِنا، وتكالبنا على الدنيا وشهواتِها، فَازْدَرَيْنا نِعَمَ اللهِ علينا؛ كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾. وقد بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لا يُنْزِلُ البلاءَ بالناسِ إلا ليرجعوا إلى دينهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقال كذلك: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾؟!

وختاما: • لا يَظُنَّنَّ أَحَدُكُم أنَّ الانصياعَ لِأوامرِ اللهِ ورسولِه في معاملةِ أولياءِ الأمورِ يُعَدُّ مِن الخذلانِ! أو السلبيةِ! أو الانبطاحِ! أو العَمالَةِ!، أو يظن أنَّ العلماءَ يدافعونَ بذلك عن حُكَّامِ الدُّوَلِ الظَّالِمَةِ حُبًّا في ظُلْمِهِم!، أو رُكُونًا إلى دُنْياهُم!! -مَعاذَ اللهِ-؛ لكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما أنه حَرَّمَ الفِتنةَ، فقد حَرَّمَ كُلَّ ما يُفْضِي إليها؛ وذلك حَقْنًا للدِماءِ وصَوْنًا لِلأعراضِ و الْحُرُماتِ.

• ولْتَعْلَمُوا أنَّ الإِعراضَ عن أمْرِ اللهِ ورسولِه؛ سَبَبٌ في زوالِ نعمةِ الأمنِ، وحلولِ الخوفِ والفزعِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾!، كما أنَّ مخالفةَ هَدْيِ النبيِّ ﷺ في التعاملِ مع الحكام مِنْ مُوجِباتِ الفتنةِ في الدنيا والعذابِ في الآخرةِ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

• ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾؛ وعليكم بوَصِيَّةِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما قال: «أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللهَ، وعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالجَمَاعَةِ، فَإِنَّهُمَا حَبْلُ اللهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَمَا تَكْرَهُونَ فِي الجَمَاعَةِ (خَيْرٌ) مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الفُرْقَةِ!، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ نِهَايَةً!»